

الثورة 36 في الذاكرة الشعبية الفلسطينية

مجلة التراث والمجتمع العدد 45 - د. سونيا نمر - 2007/06/20م - 11:00 ص



عندما بدأت الانتفاضة الأولى عام 1987، وخاصة في سنتها الأولى، بدأنا نسمع كبار السن يقولون، وهم يهزّون رؤوسهم استحساناً، "أنها نفس ثورة 36"، ويبدوون بتعداد أوجه التشابه بين ثورة كان قد مر عليها خمسون عاماً والانتفاضة الجديدة: "العصيان المدني هكذا كان تماماً، أخذ الناس زمام الأمور بين أيديهم".

"محاكم الثورة، محاكمة العملاء، الأسماء المستعارة للقادة والفرق، اللجان الشعبية".
 "إنها نفس المظاهر"، يقولون بحماس. ويبدوون سرد القصص التي تؤكد أوجه التشابه وهم يعيشون بذاكرتهم ثورة كانوا شبابها. ربما قد تنتهي المقارنة عند هذه النقاط، لكن مما لا شك فيه أن ثورة 36 ما زالت تمثل للأجيال المتعاقبة ذاكرة حية.

ومن المؤسف أن نستذكر تلك الثورة العريقة، في ظروف تكاد تكون أشد إيلاماً. في ظرف حصار وجدار واعتقالات وقتل، وهدم بيوت، وأيضاً مقاومة وصمود. وكأن الزمن ما كان - وكأنه لم يتحرك من مكانه. جيل ثلثو جيل، ثورة تلو انتفاضة تلو ثوره ... تلو أمل تلو ألم.

التاريخ الشفهي - حكاية ام منهج ؟

" هذا يوسف الحمدان تطوق هو والفصيل تبعه، كانت الثورة بعدها قوية. واحد من الخوارج قرر عنهم، درجوهم اول آيش على بلد اسمها الكفرين، قاموا الناس قالوا لهم الطوق لاحقكم، وراحوا على كفر قرع، نفذوا على عارة، درجوهم على أم الفحم، والطوق لاحقهم، ما أجا نص الليالي إلا وهمه بقولوا طوق يا ناس، لما صار الطوق، تقولي هالوطنية، يعني هاي الناس اللي الهم وطن، قالوا له بدنا نخبيك. هسه الناس بقولوا سبع طواق وناس بقولوا تمان طواق، وناس بقولوا اتنا عشر، بعرفش، والطيارات بتلف وبتكشف، قلمهم يا جماعة بقدرش اتخبي، والمخبر بدو ايانني حتى لو أني ببطن أمي بده يطولني، لَع أنا بدي أواجه الموت، وأموت شهيد وجه لوجه.



بقي معاه خاف الله خمسة وعشرين، انقتل اشبي هون، يوسف الحمدان قتلوه، قال أنا بدّي اطلع عليهم، انتاعشر واحد اللي انقتلوا هون، يم ركبوا سريعة الطلقات [الانجليزية] على المدرسة وصاروا واحد ورا واحد ينقبوهم¹.

قد تكون هذه الواية طريفة، وتذكرنا بتلك الروايات التي يهوى الأجداد والحجرات روايتها لمن يجدونه جاهزا للاستماع، لكن لو نظرنا إليها كقيمة تاريخية سنجد أنها تضع المستمع داخل الحدث نفسه، وبأنها تعطي للتاريخ حياة خاصة وأبعداً متنوعة، وحيوية إنسانية لا نجدها في الكتب الرسمية.

في الخمسة عشر سنة الأخيرة، بدأ جمع واستخدام الرواية الشفوية كمنهج للبحث يتسع بسرعة مضطردة، وازداد عدد الدراسات والأبحاث التي تعتمد هذا المنهج بشكل كبير ولافت. لكن ورغم ذلك فإن سمة التردد والشك وعدم الثقة بهذا المنهج ما زالت تشوب موقف المؤرخين الكلاسيكيين والأوساط الأكاديمية التي تشكك بمصداقية هذا النهج وقدرته على تقديم ما سموه "بالحقائق" فهم ينتقدون هذا المنهج على أساس أن ذاكرة الإنسان ليست دقيقة وأن العامل الذاتي لكل من الراوي والباحث - إضافة إلى تأثير المجتمع وثقافة الفرد - تتدخل في آلية التذكر. هذا النقد بحد ذاته وبشكل مجرد صحيح، وربما هذا هو الشيء نفسه الذي يجعل التاريخ الشفوي مميزاً وفريداً.

أما من حيث الدقة والمصداقية، فإن ذلك يعتمد تماماً على ماهية الأسئلة التي يحاول الباحث/ المؤرخ إيجاد إجابات لها. فالمتخصص في علم اللغة سيبحث في الرواية عن التنوع اللغوي وطريقة الكلام والمصطلحات المستخدمة من قبل الراوي - أي أن هذا المتخصص يبحث عن نوع آخر من المصداقية أو الحقائق، غير تلك التي يبحث عنها المؤرخ المعني بالأحداث السياسية أو ذلك الباحث في علم الاجتماع الذي سيكون همه الغوص في المضامين الاجتماعية لنفس الرواية.

والطريف أن المؤرخين الكلاسيكيين ينظرون للتاريخ الشفوي، على أنه "موضة جديدة" متناشرين حقيقة كونه واحد من أقدم مناهج البحث التي عرفها التاريخ الإنساني.

إن التاريخ الشفوي منهج بحث وليس غاية بحد ذاتها، إنه وسيلة ومحاولة لإعادة رسم حياة أو حقبة زمنية بأحداثها وتفاصيلها وحتى ألوانها ورائحتها، لأن شفوية التاريخ الشفوي تمنحه تلك الخاصية التي تجعل التفاصيل فيه تولد مزيداً من التفاصيل - لنخلق في النهاية كائناً حياً.

وعليه، لربما من الأجدى أن نسمي هذا المنهج بالذاكرة الحية أو شيء من هذا القبيل، لأن كلمة التاريخ بحد ذاتها تجعل الكثيرين يسقطون في محدودية الأحداث السياسية الصرفة.

تحتوي الرواية الشفوية - ضمن ما تحتويه - على تفاصيل قد تكون بالغة الأهمية، إلا أنها أيضاً تعكس المزاج العام للراوي وللناس في الفترة أو المسألة المراد تناولها، فالراوي قادر على إعادة استحضار مشاعره وموافقته من الماضي، حتى وإن كانت تلك المشاعر لا تتفق مع نمط تفكيره أو مشاعره الراهنة.

يقول اليكس هيلي في حديثه عن السيرة الذاتية لمالكوم اكس والتي قام بكتابتها:

"عندما خرجنا عن الحديث حول شخصيته العامة ودوره في أمة الإسلام بدأ مالكوم اكس يصف بكل وضوح كيف كان عقله ووعيه يعملان قبل أن يصل إلى نضجه ووعيه الحاليين.

ومن ثم بدأ يحاكم ماضيه أو شخصيته السابقة بمعايير وعيه السياسي والديني الحاليين"²

¹. الحاجة عايشة، أم الفحم، 1985/4/15.



وقبل أن أدخل في مزيد من التفاصيل أريد أن أؤكد أن التاريخ الشفوي ليس بديلاً عن التاريخ المكتوب أو الوثيقة، ولا يحمل منعزلاً عنهما في الوقت ذاته، فالمسألة هنا بالتالي لا تحتل المقارنة. التاريخ الشفوي:

1. قد يصلح، يؤكد أو ينفي معلومة أو حادثة ما قد تكون مكتوبة في الراوي الرسمية. ولعل أوضح مثال على ذلك قائمة بأسماء قادة فصائل ثورة عام 1936، وضعها بن بورات 1936 في كتابه المعروف حول تاريخ فلسطين - والتي وجدت من خلال مقابلاتي الشفوية خطأ بعضها، وعدم وجود بعض الأسماء الواردة لديه تماماً في ساحة الثورة، وتجاهل لعدد كبير من الأسماء الأخرى.

2. قد يضيف التاريخ الشفوي تفاصيل هامة أو أبعاداً لأحداث ذكرت في مراجع رسمية، فإن كانت الكتب أو الوثائق تذكر معركة ما في زمانها ومكانها، وأعداد قتلاها وجرحاها، فإن التاريخ الشفوي يضيف لها، كيف حصلت المعركة؟ من خطط لها؟ من شارك بها؟ من أين أتو بالأسلحة؟ .. الخ.

فمثلا الكثير من التفاصيل ظهرت حول معركة بلعا (1936) والتي بدا منها ليس فقط إدخال الطابع العسكري للمعركة، مثل استعمال الخرائط للمنطقة، بل أيضاً تخطيطاً عالياً للمعركة ولمواقع الثوار، الشيء الذي حاولت الكثير من المراجع نفيه، بل ذهب بعضها لاستخدام اصطلاح (عصابات) أو حتى Bandits (حرامية) على الثوار لينزع عن الثورة أبعادها السياسية والاجتماعية التنظيمية.

3. قد يعطي معلومة جديدة تماماً لم تذكر بالكتب. تفاصيل مذبحه راح ضحيتها 13 رجلاً من قرية الكويكات شمالي فلسطين في عام 1938، أو مذابح أخرى كثيرة ظهرت من خلال الروايات الشفوية والتي أهملتها عمداً أو لقلة اهتمام المراجع التاريخية الكثيرة حول المرحلة.

4. لكن البعد الآخر، الذي يظهر بكل جلاء في الرواية الشفوية، هو تلك الاصطلاحات والتعبيرات التي لها دلالات كثيرة تغني رؤيتنا للحدث، حيث تمتزج وبشكل غير مقصود برؤية الراوي للحدث - وبالتالي نحصل على تقييم سريع للحدث منها. فمن خلال استعمال اصطلاح الخوارج في الرواية السابقة الذي له أبعاد سياسية ودينية، وتعكس بشكل مباشر ما تراه الرواية من قيادة (إسلامية وعربية وتاريخية) في شخص القائد يوسف الحمدان. أو اصطلاح "سبع طواق"، و"ثمان طواق" والذي، وإن كان غير صحيح من ناحية تاريخية بحتة، إلا أن له إحياءات كثيرة ليس أقلها البعد الأسطوري. وإذا كان التاريخ الكلاسيكي يعني بالـ "مضى" و"الأين"، فإن التلويح الشفوي يعني بـ "المادا" و"الكيف".

إن ميزة التاريخ الشفوي وليس ضعفه كما يرى البعض هي أن الرواية الشفوية تعطي وجهة نظر الراوي نفسه ورؤيته الخاصة للأحداث التي مر بها، مما يعطي بدوره ديناميكية خاصة لعملية التاريخ.

"كنت شب وبدي اطلع مع الثورة. وأبوي لأنه اخوي كان قائد ثورة بدش يودينا إحنا الاثنين، بده مين يساعده. ما كنش يعطيني مصاري اشتري بارودة. نزلت على الدبوية.³ اخترت حصان من الدبوية وطلعت على الثوار، انطيتهن إياه

² Black History , oral history and genealogy , The Oral History Reader E d . A Thomson and R ... Perkins. Routledge . London . Last Ed. 2002. - حول مالكوم اكس

³ . مركز البوليس الإنجليزي.



وينطوني بارودة. انطيته لرباح العوض ركضت معه شهرين، مكش يعطيني بلوودة. حتى أخذته من ربلح وأعطيته للقائد أبو خضر، أعطاني بارودة، وبعدين صرت أنا فعلي ومراجلي⁴.

لاحظوا هنا كلمة **ركضت** التي لها إحاءات أيضا سياسية تنظيمية، فالقائد هو الذي كان يركب الفرس، أما الثوار فكانوا يمشون، مما يجعل للكلمة أيضا بعداً طبقياً أو مراتبياً.

ما هي الرواية الشفوية إذن وكيف يجب أن تكون، هل هناك مقاييس أو معايير تحدد مواصفاتها أو جودتها، هل تتعلق بالأحداث السياسية فقط، أم يمكن لها أن تغطي مواضيع أخرى حياتية، هل هي ذكريات شخصية حول حدث عام، هل هناك أولويات لمواضيع محددة يجب التطرق إليها وخاصة في بلد كفلسطين، حيث الأحداث تتسارع والفترات التاريخية الهامة ما تزال غير موثقة - سيما وأن الأجيال التي تحفظ هذا التاريخ وعاصرته قد بدأت بالاختفاء؟

وإذا ما أردنا التركيز على فترات زمنية مثل نكبة 48 أو حرب 67 أو تاريخ شخصيات عامة، ألن يضيع إذا ما تبقى من التلوخ (الفولكلور، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والأمور الحياتية، وحتى أمور أكثر تخصيصاً مثل فن بناء قيب المآذن من الحجر). وهل يمكن أن يكون التاريخ الشفوي شاملاً؟

لعل أكثر المقابلات الشفوية شيوعاً في العالم - وليس في فلسطين فقط - هي تلك التي تعنى بحياة الراوي الشخصية والتي من خلالها يتحدث الراوي عن الأحداث العامة مجبولة بتفاصيل حياة الراوي نفسه، وعلى الباحث من خلال دراسة التفاصيل، الخروج بالصورة العامة تماماً مثل لعبة puzzle، وربما يكون هذا النوع من المقابلات أكثر شيوعاً، لأنه يرتبط بألية التذكر واستعادة التفاصيل واستحضار الماضي، فللراوي هنا ببساطة يتحدث عن نفسه.

في هذه الورقة، لن عرض عليكم تفاصيل الأحداث الزمنية التي مرت بها الثورة، ولكن أود أن أعبر وإياكم في رحلة إلى الماضي نمرّ فيها من محطة إلى أخرى بدون ترتيب زمني أو حدثي مقصود، نكتشف من خلالها التفاصيل، بعضها مثير، وبعضها مضحك، وبعضها يشوبه الحزن والحسرة، لفظها كلها مجتمعة تعطي صورة حيّة لما كانت عليه تلك الثورة من خلال روايات رواها بعض من شارك فيها. لتعود أسماء بعض القادة تظهر بحيويتها (أو كما يقولون بجّوها وبحرها).

أبو دره - قائد منطقة جنين - حيفا

عبد الرحيم الحاج محمد - طولكرم - نابلس

عارف عبد الرازق - طولكرم - رام الله

عيسى بطاط - الخليل

عبد القادر الحسيني - القدس

محمد الصالح (أبو خالد) - سيلة الظهر

خليل محمد عيسى أبو إبراهيم - الجليل

عبد الله الأصبح - الجليل

حسن سلامه - الرمله - يافا

⁴. أبو علي بيتيم/ أبو سنان، 1984.



عندما اشتدت عمليات الثورة ضد مواقع الانجليز، أحضر أولئك اللورد تشارلز تجرت (Charls Tiggert). وكان مشهوراً آنذاك بهندسة القمع في الهند. فبنى هذا الرجل 56 حصناً للبوليس على طول البلاد وعرضها (تلك البنايات التي نسميها الآن المقاطعة). كان ذلك سنة 1937، كذلك أقام حدود من الأسلاك الشائكة بين حدود فلسطين وسوريا ولبنان لمنع تهريب الأسلحة والمعدات والمؤن لقوات الثورة، وإن كان تجيرت قد نجح بإقامة مباني البوليس، لكن أسلاكه الشائكة لم تدم وقتاً طويلاً في مكانها حتى بيعت بأسواق الخرده في مدن الشمال.

"في مره من الليالي أجانا أمر من القيادة أنا نروح على الجبال. كان هناك سلك من رأس الناقوره لجبل الشيخ، هذا كان على الحدود بين فلسطين ولبنان. شو بذك بالطويله، التقينا في قرية هونه اسمها سحماتا، وبعدين صرنا نلم بالزلام، كنا يعني بطلع أربعين خمسين واحد. نروح على القرى ونلم الزلام، وبدينا نقطع. كان طوله ست أمتار وعمقه حوالي عشرة أمتار بطلع. وهذيك الليله قطعنا اشي اثنين وعشرين كيلو متر من السلك"⁵.

كانت هناك عدة وسائل لجمع الرجال والأسلحة، منها مثلاً، إن كان بعض القادة يزورون القرى ويطلبون من الرجال الانضمام للثورة - وتلك كانت من أسرع وأسهل الطرق للتنظيم - يقول إبراهيم حنا من قرية البقيعة:

"اجا رجال من الثوار على قريتنا، كانوا بدهم زلام ينضموا للثورة، وطلبوا منهم يسلموا حالهم. أسه المسلمين بالبلد، قالوا إحنا معناش مصاري للسلاح، بس بنعطيك رجال. اسه المسيحية قالوا هذول كانوا أغنى من المسلمين، قالوا إحنا بنقدم منا المصاري للسلاح، وهيك صار لقريتنا فصيل"⁶.

في البداية لم تكن الأمور كثيرة التنظيم، وأن كل فصيل يأخذ على نفسه القيام بعمليات ضد مواقع الاحتلال الانجليزي - وبعدها وعندما كبرت أعداد الثوار. وازدادت العمليات، كان لا بد من تنظيم لهذا المجهود الهائل ليصبح أكثر فعالية:

"بعد تقسيم الرجال لفصائل وفرق، انطلب من قادة الفصائل أنهم يضلوا في قراهم حتى ينطلبوا، يعني يطلبهم قائد المنطقة. الفصائل الثانية طلعت معه على الجبال. هذا اللي هو فوزي القاوقجي. هاي الطلعات كانت يعني ثلاث أسابيع كل مره. بنشارك الفصائل باشتباكات وعمليات (الجيش) هيك كان يسمى المتطوعين أسلوب اللي جابهم معه. وقت ما يعطي الفصيل تدريب أساسي وتنظيم، بعد الثلاث أسابيع، يروحن من قراهم، ويبعث ورا الثانيين"⁷.

بعد سنة 1938 وصلت الثورة إلى مستوى عالٍ من التنظيم والفعالية. وفي كثير من الأماكن والأوقات سارت بديلاً عن المؤسسات الرسمية، فقد أنشأت الثورة محاكمها الخاصة، وقوانينها الخاصة، بل وأصدرت طوابع بريدية بديلة. وقامت بإصدار بيانات لا تتعلق فقط بالشؤون السياسية بل تعدتها إلى الشؤون الاجتماعية الحياتية الأخرى.

ولا بد هنا من أن أقوم ببعض التحليل حول آليات التذكر لدى الراوي، قد تتضح حيوية التاريخ الشفوي، وتنبدى أهميته، وخاصة بالنسبة للذاكرة الفلسطينية.

إن عملية التذكر هنا أكثر تعقيداً من مجرد أن يسأل الباحث سؤالاً ويجيب عليه الراوي بمعلومات دقيقة، فالذاكرة ليست ملفات إلكترونية محفوظة بشكل دقيق ومرتب حسب الأحداث والتواريخ. ولا تأتي من ضغطة على مفتاح، فيظهر الملف المراد

⁵. مصطفى البكري البقيعة الجليل 1985/2/02.

⁶. إبراهيم حنا، البعنة، 1985/2/20.

⁷. بهجت أبو غريبه - 1985/5/5.



دراسته، إن التذكر ليست عملية ميكانيكية، فالراوي يتذكر القضايا مجبولة معاً ومختلطة بمشاعر وعواطف وردود أفعال وأمنيات ومحاولات دائبة لإعادة صياغتها وفهمها.

إن من الصعوبة بمكان الفصل ما بين الشخصي والعام عند الراوي، فهو عندما يتحدث عن حدث عام، فإنه غالباً ما يصف دوره وينظر للحدث من خلال هذا الدور فإذا ما سألت راوياً عن حدث سياسي ما، فإنه غالباً ما يصف دوره وينظر للحدث من خلال هذا الدور - فإذا ما سألت راوياً عن حدث سياسي ما، فإنه غالباً ما يبدأ بالقول "أنا كنت":

"أنا بقيت في أبطن عند جوزي، أنا شو معاي، نصيت حلاوة مشتريها أروحها، ومعاي سمك ومعاي شوال فيه ننعن وحويرن. وقت ما وصلنا النقطة من اللجون وغاد، قالوا هناك تفتيش، وإلا واقفة عشرة تتاعشر انجليز، يلا طيحوا قوام، بش نسوان إلا أنها بهالباص. هذا الزلما ظل متأخر، كن قال يا من درى يخدي بندل على البلاد اللي أنت بيها. قتلوا مالك يخوي، قال البعيد منت يختي بشنقوني، معي فرد، قتلوا هاتوا أعطاني إياه وخبيتو بحضني، نزلوا الزلام فتشوهم. وواحد انجليزي طلع عالباص، تطلع عالغراض ونزل. وطلعوا الركاب وأعطيت الفرد للشباب، صار يقول منين انت يختي، شو اجازيكي، انت نجيتيني من الموت، قتلوا روح يخوي، جزاي عند الله، وقد ما لح علي، قتلوا أنا من يعبد من دار الشيخ زيد. ونزل عالطريق"⁸.

هذا كان جواب الحاجة بهجة مصطفى عندما سألتها عما إذا كان الانجليز يفتشون النساء.

5. إن الراوي غالباً ما يحاكم الأمس من خلال رؤيته لما يحدث اليوم، بينما نجد الراوي يتحدث بحماس عن تفاصيل ثورة 36، نجده يقول معقلاً "وشو الفائدة، كلو ما جيبش نتيجة" أو أن يقول "لو قبلنا بتقسيم 47 كان ما صار اللي صار وضلت البلاد بلاد". ولعل هذا الإسقاط السياسي يدل على أن الذاكرة ليست مخزناً سالباً للأحداث والحقائق، بل هي عملية دائبة النشاط لإيجاد معنى للأشياء، وعليه فإن التفاصيل والتداعيات التي تستقى من عملية جمع الرواية الشفوية سواء الشخصية أو العامة لا تختلف باختلاف الموضوع أو الحدث أو زمان المقابلة وحسب، بل أيضاً نجد أن سرد الرواية يختلف باختلاف الظروف السياسية والفترة الزمنية والحالة الذهنية التي تتم بها المقابلة، حتى لو كانت المقابلة مع الراوي نفسه حول نفس الموضوع.
6. إن مشاعر الراوي وعواطفه وتأثره بالحدث قد يجعل عملية التذكر تبدو انتقائية، فقد يروي حدثاً ويذكر تفاصيل مطولة ودقيقة، ثم يذكر حدثاً آخر، وعلى نفس الدرجة من الأهمية باقتضاب شديد، قد يحذف أحداثاً، وقد يكرر أحداثاً ذكرت سابقاً، يطيل لحظات الصمت عند تذكر حدث معين، ويرتفع صوته أو ينخفض لتذكر آخر. وهذا بالنسبة للمؤرخ له دلالات بقدر أهمية الكلمة نفسها، وهذا ما يراه المؤرخ يحصل للتجربة وهي في سبيلها لأن تصبح ذاكرة، والذاكرة في طريقها لأن تصبح تاريخاً.

إن تطور الأحداث السياسية والظروف التي يمر بها الراوي قد تغير في الرواية نفسها، وبلا شك فهي تؤثر على رؤية الراوي الذي يتأثر بالحدث، فقد وجدت من خلال تجربتي مثلاً أن النساء في مقابلات حول ثورة 36 في فترة ما بين 1983 - 1985 سواء في مناطق 48 أو في الأراضي المحتلة، بأن رواياتهن تنتم بتحفظ حول دور المرأة في الثورة، والتقليل من أهميته أو حتى تغييبه، بينما تحدثت النساء بانطلاق وإسهاب وثقة حول دورهن في نفس الثورة عندما قمت بإجراء مقابلات أثناء

⁸. الحاجة بهجة مصطفى - يعبد - 1985 / 2 / 25.

الانتفاضة الأولى، ويعود ذلك للدور الكبير الذي قامت به المرأة في أحداث الانتفاضة مما أعاد لها الثقة بنفسها ومنحها الحافز للتحدث عن دورها ليس فقط في الانتفاضة، بل وفي ثورة 36 أيضاً.

إن أحداث 36 لم تتغير، ولكن رؤية النساء لها تغيرت، فبينما كان دورهن مغيباً في فترات الهدوء السياسي النسبي، فإن رؤيتهم لأنفسهن اختلفت وكذا اختلفت الروايات.

فالراوي أيضاً من خلال عملية التذكر يقوم بعملية تقييم دائبة لدوره وللحدث السياسي وعلاقتها معاً.

7. إن الذاكرة تكون أكثر نشاطاً في تذكر الأحداث القديمة، إذا ما تم استعادتها أو تحفيزها من خلال أحداث أخرى قد تكون مشابهة. فعملية التذكر هي تداعيات تتشابك ما بين القديم والجديد. وحتى تتمكن من تحفيز ذاكرة الراوي أفقياً، أي تذكر تفاصيل حدث معين أو فترة ما - قد نجد أننا نحتاج إلى استئثارها من خلال التذكر عمودياً - صعوداً ونزولاً في الزمن. فوجدت من خلال تجربتي أنه كان من الأسهل على الراوي تذكر تفاصيل لأحداث مرت سنة 1936، إذا ما قورنت أو استحضرت من خلال أحداث شبيهة قد حدثت في الانتفاضة مثلاً.

8. هناك خلط ما بين الواقع والخرافة ولأن الذاكرة تنتقي الصور الايجابية لحاجة نفسية (سببها قناتمة الحاضر) في غالب الأحيان، تتحول الأسطورة إلى حقيقة مطلقة بمرور الزمن. ويتذكرها الرواة كحقائق تاريخية، وهم يؤمنون كل الإيمان بصدقها، لأنهم ببساطة وبلا وعي يودون ذلك، وغالباً ما يرفضون رواية مغايرة، فعلى سربيل المثال وجدت أن معظم الرواة يتذكرون أبو جلدة والعرنيط، كأبطال حقيقيين ضد الانتداب وخدمهم الناس بالأشعار والواقع أنهما لم يكونا سوى قاطعي طريق قبل الثورة أتت بطولتهما من كون قوات الاحتلال البريطاني لم تتمكن منهما.

ومن هذه الأشعار:

أبو جلده العرميط	ربطوا الطرق تربيط
أبو جلده ماشي بحاله	والعرميط راس ماله
واللي بريد وصاله	بينزل عليه كالعفريت
حيث أبو جلده بالأفاق	ببلاد الغرب بالاتفاق
والسكان بدون اتفاق	لذكره يبدو زغاريت
أبو دوله وأبو عمله	حبو يعيشوا بمذله
سلموا حالهم بالجمله	وصاروا شبه الوطايط

وفي صورة أخرى من قرية عابود، استشهد عام 1967 فدائي مصري تسلل للمنطقة وتقول الرواية وذاكرة أهل القرية الجماعية، بأنه عندما استشهد الفدائي وهموا بدفنه لم يتمكن العديد من الرجال حملة، لأنه حسب الرواية كان ضخم الجثة (عملاقاً) وقالوا، بل وأكدوا، أنه بعد أسبوع من استشهاده ودفنه كانت تفوح منه رائحة المسك، وأن من يمر بجانب قبره ستحط عليه البركة. ومع ذلك فإن أهل القرية يتذكرون الأحداث السياسية الأخرى حول حرب 67 والهزيمة بذاكرة شبه وثائقية.

فالأسطورة - الحقيقة - الرواية - تصنع وللحاجة وليس عمداً لتزوي التاريخ. والشيء بالشيء يذكر، ففي عام 2002 عندما قام قناص فلسطيني بقتل 13 جندي ومستوطن إسرائيلي قرب رام الله (منطقة عيون الحرامية) انتشرت الروايات ليس فقط



لتمجد العمل، (قيل) إنه أحـ بقايا ثوار 36، لأن البندقية التي استعملت كانت برتغالية الصنع من نوع كاربين قديمة جداً. وأنها كانت مثبتة بأسلاك بشكل يدوي.

ولسان حال الناس هنا يعيد التذكير بطولات 36. والطريف في الأمر أن هذه الروايات ما زالت تتناقل، بالرغم من القبض على منفذ العملية بعد أكثر من سنتين، وهو شاب لم يتجاوز عمره آنذاك الثمانية عشرة سنة، وبالرغم من ظهور الحقيقة، إلا أن الذاكرة حول هذه العملية ربما ستبقى الأسطورة، وتترك الحقائق للجرائد الرسمية والكتب.

وقد يأتي باحث في التاريخ الشفوي ليوثق هذه الروايات والتي هي أقرب إلى خيالهم وقلوبهم وجاجتهم، ولا يعني هذا أن هذه الروايات منافية للحقيقة أو كذباً..

وكما يقول بورتيللي:

"لا توجد حقائق كاذبة في التاريخ الشفوي"، وإنما هي كيفية رؤية الناس لحدث معين.

فالحقيقة – إن التاريخ الشفوي تأتي أهميته وغناه ليس من خلال كشفه عن "حقائق" وأحداث بل بقدر ما يعتقد الرواة أنفسهم بأنه حقائق. وخاصة تلك الحقائق التي نقلت من جيل إلى جيل.

وعلى سبيل المثال تذكر أهل قرية دير ياسين المذبحة التي قامت بها العصابات الصهيونية عام 1948 بتاريخ معين، مع أن كافة المراجع التاريخية والوثائق تؤكد حدوث المذبحة في تاريخ مختلف (فارق أيام) وهنا برأيي، ليس الأهم من هذا المثال هو إثبات خطأ أهل دير ياسين للتاريخ، بل ما هي الدلالة للتاريخ الذي أجمعوا على تذكره، بمعنى آخر لماذا تذكروا لماذا تذكروا هذا التاريخ بالذات؟.

كما أشار الدكتور شريف كناعنة في بحثه عن المذبحة⁹، فإنه بالرغم من ظهور عدد 254 هم الذين قتلوا في المذبحة على صفحات الصحف في تلك الفترة، إلا أن الدلائل، والرواية الشفوية تشير إلى أن الرقم هو أقرب إلى المائة. إذاً لماذا تذكر أهل دير ياسين أسماء الذين قتلوا في المذبحة بالتفصيل، بينما أخطأوا في التاريخ (أو بالأحرى ذكروا تاريخاً مختلفاً) هذا ما يهم المؤرخ الشفوي هنا. الدلالات والأبعاد.

إن، التاريخ الشفوي ليس موضوعياً objective – وفي الحقيقة فإن التاريخ المدون أيضاً يجري التشكيك في موضوعيته من قبل البعض – وهذا موضوع يطول الحديث عنه. وفي حين أن التاريخ المدون يتمحور حول الأحداث السياسية، فإن التاريخ الشفوي يتمحور حول الرواة أنفسهم. إن تاريخ يتعلق بالحياة. فمثلاً التاريخ المدون قد يذكر لنا معلومة حول استشهاد ثلاثة فتيان من منطقة كذا، وبتاريخ كذا بفعل ذنبة من هذا الطراز أو ذاك، الأمر الذي سيبقي هذا الخبر جامداً، كما ورد ومنفصلاً عن كل الحياة والأحداث المحيطة بالحدث نفسه.

أما التاريخ الشفوي فإن يعيد لأولئك الشبان حياتهم، أم وأب ومدرسة وكرة قدم وشقاوة مراهقين، عطش المخيم أو الحارة – وهذا ما يأخذ القاتل والمقتول إلى أبعد من كونهما طرفي حدث واحد، ويحولهما إلى عناصر حيّة ضمن موضوع أكبر وأشمل.

وعليه، أود التأكيد هنا على مسألتين هامتين في هذا السياق:

⁹. كناعنة، شريف، الشتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير؟، مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني (شمل)، 2000.



أولهما: ومن وجهة نظري وبناء على كل ما سبق ذكره، فإن التاريخ الشفوي لا ينحصر بحدث سياسي تاريخي فقط، ولا يتوقع منه أن يكون الإجابة الشافية والوافية على أسئلة محددة تتعلق بتذكر حدث سياسي معين. فإذا أردنا الحصول على تواريخ أحداث سياسية وأرقام وأعداد وخرائط يمكن لنا الرجوع إلى الوثائق، والمراجع والخرائط والجرائد؟ ... الخ.

إذ لا يمكن أن نحمل التاريخ الشفوي ما لا طاقة له به، من الناحية التاريخية الكلاسيكية البحتة. ولا أن نحوله إلى "مسخ" مروي للتاريخ الكلاسيكي، بل أن ينظر له كمنهج يعبر عما هو أبعد وأغنى من ذلك.

ثانيهما: أيضاً بناء على ما ذكر أعلاه، فإن دور الباحث/ المؤرخ هنا لا يتوقف على كونه يطرح أسئلة ويسجل إجاباتها. إن التفاعل ما بين الراوي والباحث هنا ليس أيضاً ميكانيكياً، وإلا سيقدم الراوي ما يعتقد أن الباحث يحب أو يريد أن يسمعه، فتأتي الرواية مبتورة في أحسن الأحوال أو تخرج بكثير من التدقيق (مراقبة) والتنسيق المفتعل، وبذلك تفقد الرواية الشفوية ماهيتها وخصوصيتها.

فالتفاعل هنا هو interactive ما بين الطرفين. فالباحث ليس حياديًا، وليس موضوعيًا، وليس مطلوب منه أن يكون كذلك، بل هو مستمع بالدرجة الأولى بكل ما يعني ذلك من تفاعل وردود أفعال.

هناك الكثير ليقال عن الرواية الشفوية، وتقنيات استخدام منهج التاريخ الشفوي، ولكن أردت من هذه الورقة أن أوضح جانباً واحداً وهو آليات التذكر عند الرواة، لما لهذا الجانب من أهمية ولأنه في الغالب الجانب الأكثر إهمالاً من قبل الباحثين.

وأود أن اختتم هذه المداخلة برواية.

يقول أهل قرية برطعة حول تأسيسها:

"قبل ثلثمئيت سنة تقريباً شيخ العيلة، يعني عليه القبها، أجا هون على البلاد من تبوك في السعودية، يملكن على دم ولا اشي، وسكن في يعبد واسس العيلة، وبعدين يعد يعني 150 سنة، أجوا ناس من العيلة نفسها على هاي المنطقة، كان اسمها واد المي. ملانة غابات ومية كثير، قرروا أنهم يستقروا هون، بس صاحب الأرض يعني زي ما تقولي الاقطاعي طردهم، دفعوا مصاري والا اللي هو، يعني أرضوه، واستقروا هون جنب النبع وصار اسم القرية واد المي، آ، هسة سألتنني ليش اسمها برطعة، كان في واحد من قوات صلاح الدين شيخ هو زي ما تقولي، شافوه الناس بيركض، كان هارب من الصليبيين، صاروا الناس يقولوا برطع الشيخ - يعني هرب - قتلوا همه (يقصد الصليبيين) وصار شهيد وقبره صار زي ما تقولي ولي بيزوروه الناس وبيحطوا اعلام وأشياء عليه، صار معروف اسمه الشيخ البرطعاوي وسمو القرية برطعة¹⁰.

أضاف أحد الحضور:

"الاسرائيليين يقولوا انه الشيخ البرطعاوي كان يهودي اسمه بار - تعا وصاروا مصادرين الأرض من تحت هالشغلة، وبدوا بنوا عليها مستوطنة".

وفي الختام فإن أهمية وفرادة التاريخ الشفوي لا تأتي من خلال سرد الأحداث التاريخية نفسها بقدر ما هي كيفية تذكر الرواة لهذه الأحداث. وأنه في حين أن التاريخ يتمحور حول الأحداث السياسية، فإن تميز وتفرد التاريخ الشفوي يأتي من كونه يتمحور حول الرواة أنفسهم كبشر، أكثر من الحدث السياسي نفسه. إنه تاريخ يتعلق بالحياة.

¹⁰ عبد الرحمن قبها - برطعة الغربية - 1992.